دور التعليم القرآني في تعريب المشهد الثقافي الميزابي المعاصر في الجزائر

د. بن يحيى يحيى

الملخص:

تنطلق إشكالية ورقتنا البحثي من ملاحظة هامة مؤسّسة على مبادئ اللسانيات الاجتماعية وتحديدا في حقل تداخل اللغات وتجاورها وتأثيرها في بعضها وانتشارها في العالم، مفاد هذه الملاحظة أنّ تجاور اللغات من شأنه أن يثمر تداخلا وتبادلا فيما بينها، إمّا أن يكون إيجابيا بحيث يغني اللغتين معا أو إحداهما على الأقل، كما قد يكون سلبا بحيث يؤدّي هذا التجاور إلى التصادم والتصارع وينتج عنه انحباسا وعرقلة في جانب تعليم اللغتين أو إحداهما على الأقل، أو يضعف من تحصيلها.

وقد حاولنا أن ندرس تلكم الإشكالية على ضوء الفرضية القائلة إنّ تعليم القرآن الكريم من شأنه أن يغلّب الكفة لصالح العربية عند مجاورتها للغة إنسانية أخرى، بشرط أن يكون هذا المجتمع متمسّكا بالقرآن الكريم ومشتغلا به بشكل أساس، فجاء سؤال البحث على النحو الآتي: إلى أي مدى يمكن أن يكون للتعليم القرآني دورا في تعريب المحيط والتأثير في اللغة الأم لدى المجتمعات غير الناطقة بالعربية، المازيغية المزابية في الجزائر عينة؟

وبناء عليه، فإنّ الدراسة محاولة لرصد الواقع من خلال تحليل ظاهرة تعريب المشهد الثقافي المعاصر في سهل وادي مزاب بالجنوب الجزائري على ضوء ما سبق ذكره. وقد انتهت إلى جمل من النتائج منها:

أنّ تجاور اللغتين العربية والمازيغية لدى مجتمع بني مزاب بخاصّة وعدم تصارعهما ظاهرة ملفتة للنظر، وتفسيرها هو الارتباط الشديد للمجتمع المزابي بالقرآن الكريم واحتفائهم به تعليما وتلاوة وتقديسا. مما جعل المشهد الثقافي العام في هذه البيئة يتلوّن بصبغة العربية سواء من خلال الاعتماد الرسمي والغالب للعربية من قبل مثقفي المجتمع وعلمائها والمسؤولين عموما، أو من خلال الإنتاج الأدبي للمجتمع المزابي المعاصر في الجزائر، والذي يكاد يكون كله عربي اللسان. بدءا من قمة الهرم مفدي زكرياء ورمضان حمود وصالح خرفي وأبي اليقظان ومحمد ناصر وصالح باجو... وغيرهم إلى آخر القائمة حيث المبدعون الشباب الذين لم يتأثروا بموجة الجزأرة (الحركة المازيغية المعاصرة) مثل الشاعر المرحوم الأمين محمد و الشاعر المعاصر خرازي مسعود ...إلخ.

مقدّمة:

تهدف ورقتنا هذه إلى بيان دور التعليم القرآني في تعريب المحيط في بيئة وادي مزاب (جنوب الجزائر)، وهي ظاهرة ملفتة للنظر وتستحق الدراسة برأينا، خصوصا من الناحية اللسانية الاجتماعية، وذلك، من أجل تثمين الدور الإيجابي الذي تؤدّيه المدارس القرآنية عموما وبهذه الربوع خصوصا في رسم معالم مجتمع أراد أن تكون هويته عربية بفضل تعلّقه وتمسّكه بالقرآن الكريم والدين الإسلامي على الرغم مما يحاك ضده من مخططات بقصد زعزعته وتهجينه.

وبناء عليه فإنّ هذه الورقة تحاول أن تجيب عن جملة من التساؤلات ذات الطابع اللساني الاجتماعي تتمثّل فيما يلي:

١- إلى أي مدى يمكن أن يكون للتعليم القرآني دور في تعريب المحيط عموما؟

٢- وكيف يكون هذا الدور عندما يكون المجتمع الهدف من غير الناطقين بالعربية؟

٣- وإلى أي مدى يمكن الحكم بتجاور العربية للمزابية أو تصارعهما في بيئة مزاب؟

٤- وما هو مقدار تأثير تعلّم القرآن الكريم

في لغة المثقفين المزابيين وإنتاجهم؟

٥- وما مكانة العربية عموما لدى "انتلجنسيا" المجتمع المزابي في العصر الحاضر؟

١- التعريف بالجزائر وبيئة وادي مزاب جغرافيا ولغويا.

تقع الجزائر في شمال إفريقية، وتجاورها كل من تونس من الشرق والمغرب الأقصى من الغرب ومالي والنيجر وموريطانيا من الجنوب، وتطل بعاصمتها الجزائر على البحر الأبيض المتوسط شمالا. وهي بلد مترامي الأطراف حيث تبلغ مساحتها ٢.٣٨١.٧٤١ كلم٢، وقد بلغ عدد سكانها في آخر الإحصائيات ٤٠ مليون نسمة (٢٠١٦)١.

يدين الشعب الجزائري بصف كلية أو تكاد بدين الإسلام وعلى المذهب المالكي في الغالب الأعم، على أنّ المذاهب الفقهية المعتمدة في الجزائر في واقع الممارسة الفقهي هي: مذهب الإمام مالك، ومذهب الإمام جابر بن زيد المعروف لدى العامة بالمذهب الإباضي، ومذهب الإمام أبي حنيفة.

والجزائريون يتحدثون لغتين أصليتين هما العربية والمازيغية، إضافة إلى اللغة الفرنسية التي هي من مخلفات الاستعمار الفرنسي. وأصول الجزائريين متنوّع من حيث العرق واللغة إلاّ انّها انصهرت بجل روافدها في بوتقة الإسلام منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرنا من الزمن.

وبناء على المعطيات السالفة، فإنّ الجزائر تنتمي إلى مجموعة الدول العربية وتعد عضوا في جامعة الدول العربية بحكم المكوّن العربي للهوية الجزائرية، كما أنّها تعدّ ضمن مجموعة الدول الإسلامية وعضوا في منظمة المؤتمر الإسلامي بحكم المكون الديني للهوية الجزائرية من حيث كون الشعب يدين بدين الإسلام، كما أنّها عضوا في اتحاد المغرب الكبير بحكم المكوّن المازيغي للهوية الجزائرية، ونظرا لانتسابها الجغرافي إلى هذه المنطقة من العالم.

وبهذه الفسيفساء العرقية واللغوية والثقافية، إضافة إلى اتساع رقعة البلاد وتنوّع مناخها وثرواتها الطبيعية ...إلخ، تكون الجزائر بمثابة قارة تتوفّر على الأسباب التي تجعلها محط أطماع القوى الاستعمارية وعلى رأسها فرنسا، حيث تم استعمارها لما يزيد عن قرن وثلاثين سنة، عملت خلالها على مسخ هوية الشعب وطمس معالم شخصيته العربية الإسلامية، حتى غدا مسلوب الإرادة وممسوخ الهوية لولا عناية القدر واجتهاد الخيرين من أبناء هذه البلاد من علماء ورجال فكر ومعلّمين، الذين أبلوا البلاء الحسن في سبيل مقاومة مخططات الاستعمار ومحاربته قبل الاستقلال، وكذا محو آثاره بعد الاستقلال.

وقد كانت المقاومة الشعبية للاستعمار الفرنسي ومخططاته التبشيرية والاستدمارية على أشدها في جنوب الجزائر كما في الشمال عموما، وذلك، بفضل انتشار المساجد والزوايا ومدارس التعليم الديني في شتى المدن والحواضر بل وحتى في البوادي، وتعد منطقة مزاب إحدى تلكم الحواضر ومن أهمها، بفضل مساجدها العتيقة ومدارسها ومعاهدها المعروفة بتنظيمها المحكم ومناهجها المتطوّرة.

ومزاب عبارة عن مجموعة من الواحات التقليدية من أشجار النخيل تشقها شبكة صخرية من الوديان العميقة، تضم سبعة قصور سكنية تقليدية (مدن ألفية)، تقطنها مجموعة من عشائر وأعراش من أمازيغ الجزائر٢، تعرف اجتماعيا في الجزائر باسم "مجتمع بني مزاب" وهم من البربر (الأمازيغ) ولهم لغتهم (المزابية) التي تعدّ تنوّعا لهجيا أدائيا للمازيغية الأم، التي لها نظائر في مناطق أخرى مختلفة من الجزائر، مثل بلاد القبائل وجبال الأوراس بالشمال وورقلة (وارجلان) وأريغ وتوات والهقار بالجنوب.

وبفضل تعليم القرآن الكريم والاحتفاء به من قبل سكان الجنوب الجزائري عموما المجتمع المزابي خاصة خلال الحقبة الاستعمارية، فقد استطاع الأهالي رغم إمكانياتهم الضئيلة أن يصمدوا في وجه مخططات التغريب ومحاولات الإدماج والتمسيح الممارسة ضدهم من قبل السلطات الاستعمارية وجيوشها؛ وذلك، بفضل تكوين جيل من المثقفين الذين أثمرت جهودهم نتائج طيبة في حقل التعليم والتأليف والدعوة والإرشاد، سيما في حقل العربية والدين الإسلامي، مما أسّس لمعالم حركة وطنية شاملة أثمرت قيام الثورة التحريرية المباركة التي أثمرت الاستقلال.

لقد كان لمزاب حظ كبير في هذا الخضم، حيث أثمرت جهود علمائه ومثقفيه تكوين شبكة من التعليم القرآني الذي كان بمثابة الدرع الواقي للمجتمع ضد مخططات المستعمر، مما كان له الأثر المبارك على مستوى المقاومة الوطنية

والإصلاح، وهو ما سوف تحاول هذه الورقة تفصيله من خلال بقية الفقرات.

ولعلّ من المستحسن في البداية أن نتساءل عن التعليم القرآني في هذه الربوع ودوره العملي في نشر العربي زدعم التعريب عموما.

٢. دور التعليم القرآني في نشر العربية ودعم التعريب.

لقد كان المجتمع المزابي منذ البدء متفطّنا لمكائد الاستعمار ومخطّطاته، وهو ما لوحظ من خلال المشاركة المكثفة والإيجابية لأبنائه في المقاومة الوطنية ضد الاقتحام الهمجي لأراضي الجزائر من قبل جيوش الاستعمار، ومساهمة شباب مزاب بأعداد كبيرة في المعارك الأولى ضد الغزاة في ميناء سيدي فرج غربي العاصمة عام ١٨٣٠م، حيث تذكر بعض المصادر مشاركة ما يزيد عن ستة آلاف جندي من بني مزاب في المقاومة المسلحة المجابهة للأسطول الفرنسي.

على أنّ للعلماء دورهم الريادي والأساس في المقاومة بشتى أنواعها، وبخاصة في جانبها العلمي والتعليمي، حيث عرف الشيخ العلامة أطفيش محمد بن يوسف القطب بشدته ومواقفه الصلبة ضد الاستعمار وكرهه لكل ما يمث إليه بصلة إليه.

وقد كان لمعهده وحلقاته التعليمية وتآليفه المختلفة والعديدة الدور الواضح في مقاومة فرنسا، ولعلّ احتفاءه بالعربية وعلومها وتخريج فلول من القيادات العلمي والسياسية من المعرّبين والمنافحين عن العربية والدين لهو أكبر دليل على ذلك. وربّما نذكر على سبيل المثال كلا من إبراهيم أبي إسحق وإبراهيم أبي اليقظان، وسليمان باشا الباروني، وإبراهيم حفار...إلخ والذين رفعوا المشعل من بعده لتأسيس حركة تعليمية وإصلاحية بلغ صيتها الآفاق، وهي التي أنتجت جيلا من المعرّبين والدعاة إلى نشر العربية ونبذ الفرنسية، ممن كان لهم إسهامهم في الساحة الثقافية الوطنية.

أمّا المحور الأساس الذي تأسّست عليه كل تلكم الجهود إنّما هو القرآن الكريم، إذ أنّ التنظيم التربوي المعروف تحت اسم: (حلقة العزابة) لدى المجتمع المزابي، والذي هو أعلى هيئة عرفية في هرم السلطات التقليدي، قد حسم الأمر منذ البداية وقبل عشرة قرون بتأسيسه لنظام تعليمي قرآني يضمن للمجتمع البقاء قويا ومتمسّكا بالدين الإسلامي الصحيح ضد كل أنواع التيارات الهوجاء من هنا وهناك، ولعلّ الارتباط الشديد بالقرآن الكريم، جعل اللغة العربية تتموقع بسهولة في هذا المجتمع بل وتأسر كثيرا من أبنائه بحيث نجد منهم الشعراء والكتاب والخطباء والمؤلفين ذوي الباع الكبير والتفوّق في الساحة الأدبية والثقافية الجزائرية والعربية، من أمثال القطب أطفيش المذكور والشيخ بيوض وأبي اليقظان ومفدي زكرياء وأبي إسحاق ورمضان حمود وصالح خرفي ...إلخ

وقد كان لكل هؤلاء وغيرهم أثر مباشر أو غير مباشر في تعريب المشهد الثقافي في الجزائر من خلال جهودهم النضالية في نشر العربية والدين بناء على شدة حبهم للوطن من جهة، ومن خلال امتداد تلك الجهود في الأفق. خاصة بالنظر للتحديات الكبرى التي تجابه جزائر العصر الحديث في مضمار صراع اللغات والغزو الثقافي والعولمة والفتن الداخلية والمضايقات السياسية...إلخ

ذلك ما سنحاول بسطه في الفقرة الموالية.

نماذج من المشهد الثقافي المزابي المعرّب.

بعد التعريف بالجزائر وبيئة مزاب جغرافيا وثقافيا وبيان دور التعليم القرآني في مقاومة الاستعمار الفرنسي وتعريب المحيط عموما، نحاول فيما يلي أن نتعرّض لبعض النماذج من المشهد الثقافي المزابي الذي نعدّه نتاج هذا الدور وتحقيقا له، وباعتبارها كذلك أدلة على صحة الافتراض الذي بنينا عليه مآل هذه الورقة.

فالتعليم القرآني في الجزائر عامة، وفي الجنوب ومزاب بصف خاصة يعدّ في نظر الكثير من الملاحظين صمام أمان حقيقي للمجتمع واللغة العربية خاصة، حيث استطاع بفضله المجتمع الجزائري أن ينجو من مسخ محقق كاد أن يرهن مصير حضارة هذه البلاد ودينها لحساب التوسع الصليبي الغربي (الفرنسي).

ومن خلال اعتماد التعليم القرآني وسيلة للمقاومة السلمية والصامتة، فقد خلّفت الجزائر مع مر السنين جيلا من الطلبة والمعلمّين والعلماء والباحثين ممن يمكن اعتبارهم بمثاب الجيوش المنافحة عن الوطن ومقومات الشخصية الوطنية، بسلاح العلم والثقافة، بالموازات إلى المقاومة المسلّحة المعروفة.

فقد لعبت المدارس القرآنية والحلل والزوايا في الجزائر والجنوب منها خاصة،

أروع الأمثلة في تعليم العربية ونشرها والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية للمجتمع ككل، عن طريق تحفيظ القرآن للناشئة، وهو ما ساعد على تعريب المحيط، ونشر الحرف العربي وثقافته في سبيل تأكيد الانتماء الثقافي الروحي للشعب الجزائري وربطه بالقرآن الكريم -كتاب الله- وعلومه تأكيدا لأصالته وإنيّته.

أمّا في منطقة وادي مزاب التي هي محور هذه الورقة بخاصة، فقد كانت بداية هذه الحركة النهضوية التنويرية مع قطب الأئمة المازيغي العلامة محمد بن يوسف أطفيش الملقب بـ: قطب الأئمة، باعتباره رائد النهضة العلمية والإصلاحية في مزاب في العصر الحديث، حيث أسّس معهده على هذا المبدأ، وتخرّج فيه تلامذته النجباء من أمثال أبي إسحق أطفيش وابي اليقظان وسليمان الباروني باشا وإبراهيم حفار وغيرهم... حاملين لواء العلم والدين، إذ واصلوا المشوار من بعده بنشر العربية والدين الإسلامي داخل الجزائر وخارجها.

وفيما يلي نستعرض عددا من الملامح الدالة على النشاط العلمي والثقافي في مزاب والجزائر مما يدخل ضمن موضوعنا من حيث كونه من المشاهد الثقافية الذي صنعها التعليم القرآني وأثمرت إيجابيا في حقل تعريب المحيط بصفة عامة. ومن تلكم المشاهد نذكر:

أ. مشهد التربية والتعليم الحر.

ب. مشهد البحث العلمي والتأليف.

ج. مشهد الإبداع الأدبي والخطابة والتنشيط الفني.

وبالنزول إلى الواقع المعيش، يمكن للعيان أن يلحظ ولأول وهل أنّ المشهد الثقافي العام في شوارع وأندية المدن الصحراوية ومدن مزاب بصفة خاصّة، ميال إلى العربية في لغته إن على المستوى الشكلي وإن على مستوى المضمون، وذلك، على عكس ما هي عليه باقي المدن التي يقطنها الأمازيغ بالشمال عموما. وهو من أهم الدلالات القويّة على ما نحن بصدده، ولا باس من تتبع بعض خصائص المشاهد المذكورة في جانبها اللغوي لتبيان حقيقة الأمر. وهي:

أ. مشهد التربية والتعليم الحر.

ففي حقل التربية والتعليم، نلاحظ بأنّ جميع المدارس التي عرفها المجتمع المزابي بدءا من معهد القطب رحمه الله، إلى مدارس الجابرية ببني يزقن والحياة بالقرارة وعمي سعيد والإصلاح بغرداية والنور ببونورة والنهضة بالعطف، مما كان ينشط تحت مظلة المسجد إنّما أنشئت بغرض نشر القرآن وتعليمه ونشر المعارف والعلوم الدينية، وهي مدارس ومعاهد تعرف إجمالا باسم منظومة التعليم الحر المزابية.

إنّ منطلق هذه المدارس في لغتها التعليمية أساسا هو العربية مائة بالمائة (١٠٠٪) إذ تجعل اللسان العربي الفصيح لغة التخاطب الرسمية سواء داخل المدرسة أم خارجها، كما تعتبر العربية مادة أساسية ولغة طلب العلم، وقد استطاعت المدارس والمعاهد الحرة المزابية أن تحرز التفوّق لتلاميذها في المسابقات الكبرى مثل الباكالوريا، وتضمن لخريجها مستوى رفيعا من المعرفة يجعلهم يتميّزون في مختلف المعاهد والجامعات.

وبناء على هذا المنهج وتلكم التدابير فقد انتجت هذه المنظومة التعليمية على المستوى الاجتماعي طبقة من المثقفين المعرّبين أصالة سواء في العلوم الإنسانية والآداب أم في بقية العلوم، بحيث إذا كتبوا أفصحوا وأعربوا، وإن خطبوا في الجمهور أجادوا وأبلغوا وأبهروا المستمعين بفصاحتهم في لغة الضاد واسترسالهم في الاستشهاد عليها وقلة لحنهم في نحوها وأساليبها، على الرغم من كونهم نشأوا على لغة غير العربية ألا وهي المازيغية المزابية.

ومن يزور مدارس التعليم الحر ومعاهده في مزاب من مثل الجابرية في بني يزقن وعمي سعيد والإصلاح في غرداية ومليكة والنور في بونورة والنهضة في العطف والحياة في القرارة وكذا الفتح في بريان وغيرها كثير ... يجدها كما أسلفنا مدارس عربية بامتياز، ولا يكاد يجد فيها من يستعمل لغته الأم (المازيغية) أو لغة المستعمر (الفرنسية)، وقد يجد في بعضها لوائح٣ للنظام الداخلي للمدرسة تمنع استعمال أية لغة أخرى غير العربية سواء في التعليم أم في التواصل التربوي داخل حرم المؤسسة أو خارجها، حملا للجميع على استعمالها والالتزام بها، من أجل توفير جو من الانغماس اللغوي٤ الواجب توفّره وهو ما يدل على جدية هذه المنظومة التعليمية الأهلية في التسيير والتدبير، ووعي مسيريها بواجباتهم العلمية والتربوية والسياسية.

وبقراءة لسانية اجتماعية لهذا المشهد، نجد هذه المنظومة التعليمية تسير على نهج الدولة الجزائرية في سياستها اللغوية، من خلال تحقيقها لتلكم المعدّلات المبهرة في جودة التعليم والتميّز والفعالية

في تعريب المحيط ونشر العربية، دون أي تنافر أو صراع أو تداخل مع لغة الأم (المازيغية المزابية) من جهة، ودون انسلاخ أو تدجين باتباع الفرنسية (لغة المستعمر) بدعوى كونها سهلة أم لغة عالمية.

ب. مشهد البحث العلمي والتأليف والمكتبات.

وفي مجال البحث والتأليف والعناية بالكتاب، نجد أنّ للتعليم القرآني في هذا المجتمع (المازيغي) كذلك تأثيرا مباشرا في هذا المضمار أيضا، ودليل ذلك بروز العربية بحروفها المعروفة وخطها المتميّز وبكل وضوح على صفحات الكتب المطبوعة والمخطوطة، وفي محتوياتها أيضا، فما من كاتب أو مؤلّف يكون من خرّيجي المدارس الحرّة المزابية حاملا لكتاب الله أو لأجزاء منه على الأقل، إلاّ ويترك بصمته في الفعل الثقافي من خلال الطبع والمحاضرات والمجلات، وتكون آثاره بالعربية دون غيرها من اللغات.

وفي هذا الصدد لابد من الإشارة إلى نشاط المكتبات الأهلية والرسمية والمطابع، باعتبارها تمثّل وجها من وجوه المشهد الثقافي لهذه المنطقة، والتي أسهمت هي الأخرى في حمل لواء العربية وتكثير سوادها، فما المطبعة العربية التي أنشأها رائد الصحاف العربية الجزائرية الشيخ إبراهيم أبي اليقظان سوى مثال على ذلك، فهي مطبعة مقاومة ومجاهدة سواء لصمودها ضد هجمات التغريب والفسخ والمسخ، وبخاص اضطهاد المستعمر لها وللحرف العربي، أم لإسهامها في الطبع والنشر والتوزيع للكتب والبحوث العربية أو المعرّبة.

إنّ ما يمكن أن يقال عن المطبعة العربية في الجزائر يقال وبشكل أوسع عن الجرائد والصحف التي كان يصدرها كل الشيخ أبو اليقظان في الجزائر، والشيخ إبراهيم أبي إسحق أطفيش في القاهرة، وهما من أبناء المنظومة التعليمية القرآني بمزاب، ومن رواد الحركة الوطنية الإصلاحية.

على أنّ مسألة الكتاب العربي تتعدّى مستوى الكتابة والنشر في الصحافة على جلال قدرها وتتخطّى مخرجات المطابع الحديثة والتقليدية والإلكترونية، لأنّ هذه الأخيرة تعد واجهة لنشر المحتوى العلمي لهؤلاء وأولئك، وعليه، فلابد من الإشارة إلى المكتبات الأهلية التي كانت ولا تزال المعين الذي كان ولا يزال يمدّ هؤلاء وأولئك من الكتاب والأدباء والباحثين بما تعج به من أنواع المخطوطات التي خطت بالحرف العربي، وهي تعد بالآلاف، مما ينبئنا أيضا عن ذلك الأثر الطبيعي للتعليم القرآني في تعريب المحيط عامة والبيئة أو المشهد الثقافي خاصة.

وبيئة مزاب تضم اكبر منظومة من المكتبات والخزانات الخاصة بالمخطوطات والتي أصبحت كلها أو تكاد مبوّبة ومفهرسة وفي الطريق إلى الرقمنة٥، وهو ما سيساعد بلا شك على توسيع إمكانية الاستفادة منها خاصة إذا تم تنزيلها وتخزينها في شبكة الانترنت.

فلا يقتصر المشهد الثقافي المعاصر على الجانب المادي الماثل للعيان في الواقع، ما دمنا سائرون نحو المجتمع الرقمي في جوانب الحياة المختلفة، ومنها التعليم. ولعلنا في الفقرة الموالية سنعرض لآخر المشاهد التي أردنا أن نستعرضها في هذه الورقة، ألا وهو مشهد الإبداع الأدبي والخطابة والنشاط الثقافي عموما.

ج. مشهد الإبداع الأدبي والخطابة والتنشيط الفني.

لقد شهدت مزاب مع مطلع القرن العشرين انفتاحا على العالم من خلال تواصل بعض أبناء المجتمع مع الخارج سواء سياسيا وعلميا وهو شأن العلماء والمناضلين في الحركة الوطنية، أم ثقافيا وعلميا وهو شأن الطلبة والشعراء والأدباء وسائر المثقفين.. إذ شهدت الجزائر عموما ومزاب خاصة بعثات علمية طللابية نحو تونس ومصر والعراق حيث استطاع أبناء هذا المجتمع أن يتواصل مع العالم حتى إذا عاد إلى بلده اضطلع بشأن النهوض الثقافي والأدبي والعلمي للمجتمع.

وقد ازدهرت الحركة الأدبية بالفعل مع نشوء الحركة الوطنية والإصلاحية منها خاصة، فبدأنا نسمع عن الأندية الأدبية والجمعيات الثقافية لأوّل مرّة، وأصبح المزابي لأول مرّة كفيره من شعوب العالم يطالع كتب الأدب والشعر الوافدة من المشرق العربي وذلك بفضل ازدهار الطباعة خاصة وتحوّل النمط المعيشي شيئا فشيئا نحو الانفتاح على الآخر مع وجود انفتاح مقابل لدى رواد الحركة الإصلاحية وأدبائها من أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإصلاحية الجزائرية الحديثة، ومعه الشيخ البشير الإبراهيمي وغيرهما ممن أعلنوا القطيعة مع التطرف الديني والتعصب المذهبي، وقد ساعد على ذلك ما أسهم به شيوخ الإصلاح في الجنوب أمثال: القطب اطفيش و إبراهيم أبي اليقظان وإبراهيم بيوض من جهود

للتقريب بين المذاهب وتصحيح المغالطات التاريخية المحاكة ضد المذهب الإباضي الذي هو مرجع الفقه لسكان مزاب.

وقد ساعد على ذلك أيضا ظهور الرعيل الأول من خريجي القاهرة وبغداد من أبناء المجتمع المزابيين الذين كانوا يمثلون الثقافة الجديدة حاملين معهم الفكر الشمولي من أمثال صالح خرفي ومحمد ناصر وبكير أعوشت وناصر المرموري ومحمد فخار الذين كانوا في الغالب الأم شعراء وفنانين ومثقفين من الدرجة الأولى.

وقد أثمرت تلكم العوامل في النهاية قيام نهضة أدبية وثقافية كبيرة في الجزائر وفي مدن مزاب خاصة، من خلال انتشار العشرات من الدواوين الشعرية والكتابات الأدبية المختلفة في القصة والمسرح والرواية... ناهيك عن انتشار حب القراءة والمطالعة الأدبية والمحاولات الإبداعية ... بفضل ظهور المكتبات العمومية المصنفة والمفهرسة والتي كانت في الغالب الأعم من منشورات المشرق العربي أي بالعربية أساسا. وهو ما ساعد على تشكّل المشهد الثقافي المنتصر للغة العربية على حساب اللغة الفرنسية التي كانت سائدة قبل ذلك.

وإلى جانب انتشار الكتاب العربي وما حمله من أعمال وتراث أدبي بالعربية الفصيحة، فقد شهدت منطقة مزاب ظهور جنس أدبي جديد مع الصحوة الدينية العامة سيما نهضة المساجد واستعادة هيب الجمعة التي ساعدت على التنافس في الخطابة وأساليب الإلقاء والتبليغ الديني في المنابر، حيث كانت العربية الوعاء الأمثل لها، وهنالك تم اكتشاف مدارس للخطابة مثل مدرسة الشيخ حمو فخار ومدرسة الشيخ محمد سعيد كعباش ومدارس الشباب من أدباء وخريجي الجامعات...

إلى جانب الخطابة الدينية، انتشرت الخطابة السياسية من خلال التمثيل السياسي الانتخابي والعلمية من خلال المحاضرات والدروس التوجيهية المسجدية، بالإضافة إلى الخطابة المدرسية والأدب المدرسي الذي كان يتبارى التلاميذ في المستويات المختلفة على التميّز فيها، حيث أنشئت مجلات حائطية وورقية وجرائد كانت سبيلا غلى اكتشاف المواهب المختلفة في الإبداع عامة.

إنّ للعربية شأنا خاصا لدى المزابيين بفضل التعليم القرآني وجهود المدارس الحرة خاصة، حيث لا يمكن أن يكتمل هذا المشهد تحديدا دون ذكر لمجال الفن والخط العربي منه خاصة، حيث شهدت مزاب فلولا من خريجي مدارسها العربية أبدعوا في أجناس الفن المختلف من إنشاد وتمثيل وفنون التعبير المختلفة، وقد عرفت فرق عديدة للإنشاد وإحياء المناسبات الدينية والعائلية، ولعلّنا بالمناسبة نذكر رائد الخط العربي مستنسخ المصحف الشريف في الثمانينيات من القرن الماضي وهو الدكتور محمد بن سعيد شريفي ومعهد الفنان القدير إبراهيم مردوخ وغيرهما ممن احتفلوا بالخط العربية وأبلوا البلاء الحسن في الترويج للعربية فنيا وتعليم فنون الخط العربي للأجيال المتعاقبة.

إنّ موضوعا كهذا لا يمكن استيفاء حقه سردا وبعجالة لما له من امتدادات وتفريعات تقتضيها طبيعة إشكاليته، وحسبنا في هذه العجالة أنّنا حاولنا أن نلفت انتباه الباحثين إلى أهمية دراسته والدلالة على بعض معالمه، على أمل أن تتاح لنا الفرصة مستقبلا أو لغيرنا من أجل عمل أكثر عمقا واستقراء للواقع.

• خاتمة واستنتاجات.

وفي الختام، نود التأكيد على أهمية الإشكالية الأساس التي بنينا عليها موضوع هذه الورقة، ألا وهي البحث عن السر الذي جعل العربية تنال كل هذه الأهمية وتحظى بهذا الاهتمام كله من قبل مجتمع مزاب البربري المازيغي، على خلاف ما هو متعارف عليه لدى مجتمعات مماثلة من أمازيغ الشمال سواء في الجزائر أم في المغرب أم حتى لدى شعوب أخرى أعجمية، وهو ما يؤكد لنا الدور الأساس الذي أدّته وتؤديه المنظومة التعليمية الحرّة في مزاب جنوب الجزائر في الموضوع.

وعليه، لا بأس أن نذيّل هذه الورقة ببعض التوصيات التي نراها ضرورية بالمناسبة، وهي:

١- ضرورة الاهتمام أكثر بدراسة هذه العلاقة بين تعليم القرآن ونشر العربية من أجل بناء منظومة فكرية تحفظ للعربية قدرها وللغات الشعوب الناطقة بغيرها قدرها لمنع المغالبة أو التصارع فيما بينها، والاستفادة من ذلك في رسم منهجية عالمية في تعليمية العربية للناطقين بها وغير الناطقين.

٢- ضرورة دعم التنسيق بين الباحثين والتواصل بينهم في شتى بقاع العالم الإسلامي من أجل مزيد من البحث والتنقيب في هذه الإشكالية وتجميع الاستنتاجات، والاستفادة منها عمليا

في سائر البلاد.

٣- تشجيع البحث في علاقة العربية بلغات الشعوب الإسلامية خاصة في سبيل تطوير الصلة بينها سواء في التعليم أم في غيره من مجالات التلاقي والتجاور، في سبيل تطوير برامج تفيد اللغات جميعها، سيما العربية منها باعتبارها لغة القرآن الكريم واللغة الجامعة لهذه الشعوب.

الهوامش

١- ينظر: موسوعة ميكي بيديا الشبكية، الرابط: https://ar.wikipedia.org/wiki بتاريخ: ٢٠١٧/٠١/٢٨.

٢- ينظر: الحاج سعيد يوسف بن بكير، الهوية المزابية، أهم عناصرها وتشكلها عبر التاريخ، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، دط، ٢٠١١م، ص: ٢٥ وما بعدها.

٣- وهو ما وقفنا عليه بالفعل في لوائح المدرسة الجابرية القرآنية، عند زيارتنا لها في إطار بحث سابق مماثل، ينظر: بن يحيى يحيى ومناع آمنة وعبد السلام محرز، دور المدرسة الجابرية القرآنية في تعليم العربية ونشرها في الجزائر، المؤتمر الدولي الأول للدراسات اللغوية، جامعة المدينة العالمية، شاه علم، (ماليزيا)، ٢٠١٥م، ص١٠.

٤- ينظر فيما يخص الانغماس اللغوي وبدايات تطبيقه: دوغلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، تر: عبده الراجحي وعلي أحمد شعبان، دار النهضة العربية، بيروت دط، ١٩٩٣م ص: ١٢٥ وما بعدها.

٥- ينظر: بهذا الصدد جهود جمعيات التراث بالقرارة والشيخ ابي إسحق اطفيش بغرداية لخدمة التراث، وقد أثمرت جهود الباحثين في هذه الجمعيات ذات الطابع العلمي أدلة إلكترونية وورقية لآلاف المخطوطات والخزانات الأهلية الموجود بسهل وادي مزاب.